المشرق

تاريخ جديد

لمدرسة بيروت الفقهية الرومانية

نظر تاريخي انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

ذكرنا في احد اعداد المشرق السابقة (عدد أيار ص ٣٧٣–٣٧٨) لمعةً من اخبار المدرسة الفقهية التي انشأها الرومان في بيروت في اواخر القرن الثالث للمسيح وكنّا نجهل وقتئذٍ انَّ احد كبار اساتذة الفقه المسيو پول كولينه كان على وشك الفراغ من تأليف كبير افردهُ لتاريخ هذه المدرسة الشهيرة. وها هوذا تلطّف وارسل لنا منهُ نسخةً هذا عنوانها :

HISTOIRE DE L'ECOLE DE DROIT DE BEYROUTH par, Paul Collinet, Professeur à la Faculté de Droit de Paris, Professeur honoraire à la Faculté de Droit de Lille(Etudes historiques sur le Droit deJustinien). *Paris*, t. II' *Société anonyme du Recueil Sirey*, *in*-12, 1925, *pp.* 327

فتقبَّلنا هذه الهبة بزيد الشكر. كيف لا وهي توقفنا على بعض مفاخر مدينتنا بيروت التي احرزت مدَّة نحو ثلثمائة سنة مجدًا مؤثلًا كادت تمحوهُ آفات الدهر فأحيا معالمهُ احد اساطين العلوم الفقهيَّة الفرنسويين بهذا الكتاب الفريد الذي كنّا نودّ لو يقوم احد ادبائنا ويُعنَى بتعريبهِ. وها نحن نُسلف قرَّاءنا بعض مضامينهِ رجاء ان يقفوا على مجموع فوائدهِ المتعة

صورة الكتاب وغايتهُ واقسامُهُ

كان الاستاذ كولينه بانشر بادئ بدء بدروس تاريخيَّة عن اعمال الامبراطور يوستنيان في تنظيم التعاليم الفقهية فنشر في ذلك سنة ١٩١٣ مجلَّداً ضخماً وبيَّن فيهِ انَّ مشروع يوستنيان كان متَّسماً بسمة شرقيَّة اثَّرت في دستور الشرائع الغربيَّة المدرسي. فأعجب الاختصاصيّون بتأليفهِ ونال جائزة المجمع العلمي (الاكاديميـة) الاثري الفني في باريس. وكان العلماء وخصوصاً ارباب الفقه ينتظرون المجلد الثاني من كتابهِ اذ جاءت الحرب الكونيَّة وحالت دون رغبتهِ لكنهُ زاد تعمقاً في درس الآثار الفقهيَّة المتوطة بدستور يوستنيان واصولهِ وينابيعهِ واذا بمدرسة بيروت واقفة بازائهِ حيثما وجَّه ابصاره فتحقَّق انهُ بدرسهِ تاريخها يجد حلًّا لعدَّة مشاكل كان يعتاص عليهِ ادراكها. فعزم على ان يخصَّها بدرس مستقلّ لما كان لها ولاساتذتها من النفوذ اذ فـاقت على مدرستي رومية والقسطنطينية. فجمع كثيراً من النصوص الناطقة بشرفها واعمالهـا العجيبة وعمدة اساتذتها وعارض نصوص معلميها بشرائع يوستنيان المتولة عنها. فأدَّت بهِ ابحاثهُ الجليلة الى تصنيف هـذا الكتاب الذي نحن بصددهِ وهو يبلغ ٣٣٢ صفحة. وقدَّم على كتابهِ قائمة التآليف المطبوعة والخطيَّة التي استند اليهـا في ايراد معلوماتهِ. ثمَّ قسم تأليفهُ الى ستَّة فصول تتناول مجمل ما يتوق القرَّاء الى معرفتـهِ في هذا الشأن وها نحن نستقريها فصلًا فصلًا لنجتني بعض ثمارها الشهيَّة

نظر عام في احوال المدرسة ببيروت الفقهية

هذا الفصل الاوَّل من الكتاب بحث فيهِ عن ثلثة مطالب:

﴿المطلب الاوَّل﴾ في اي سنة أنشئت مدرسة الفقه في بيروت؟ قـد تفرَّقت آراء العلماء في تاريخ انشاء هذه المدرسة فمنهم من رقَّاها الى زمن اوغسطوس قيصر في الجيل الاوَّل للمسيح. وارتأى غيرهم انَّها أنشئت في عهد الامبراطور ادريان وذهب البعض الى انَّها برزت للوجود في ملك سبتيموس ساويرس في اواخر القرن الثاني. إلَّا انَّ هذه الآراء لا تستند الى شهادة راهنة واضحة. وانَّما المرجَّح انَّ المدرسة البيروتيَّة ظهرت الى النور في القسم الاخير من القرن الثاني للمسيح. يُستدلُّ عليهِ من خطبـة

للقديس غريغوريوس اسقف قبادوقية المعروف بالعجائبي القائل سنة ٢٣٩ للمسيح فجاء في اثنائها لاوّل مرّة ذكر مدرسة بيروت فنعتها بالمدرسة العمومية للفقه الروماني ومعهده العلمي (Romani juris harum legum communis schola et auditorium) يؤخذ منهُ انَّ مدرسة بيروت كانت زاهرةً في تلك السنة لها سمعةٌ مستفيضة في العالم الروماني. وهذا ما لا يتمّ إلّا بعدّة سنين

﴿المطلب الثاني﴾ ماذا كان الداعي الى انشاء الرومان مدرسة فقهيّة في بيروت؟ انَّ الداعي لذلك (اوّلاً) مقام بيروت بالنسبة الى رومية فانَّ هذه المدينة كانت كباب الشرق ومفتاحهُ كما يدعوها كتبة ذلك العهد لتوسّطها في سواحل بحر الروم اليها تفضي تجارة البلاد الداخليّة من جزيرة العرب وجهات الارمن وما بين النهرين. ثم (ثانياً) تعلّق البيروتيين بالدولة الرومانيّة حتى انَّ القديس غريغوريوس دعاها بالمدينة العريقة بالجنسيّة الرومانية πόλις Ῥωμαικωτέρα فخصّها القياصرة بسابغ نعمهم فمنحها اوغسطوس حقوق المستعمرات العسكريّة وجعلها مركزاً لكتيبتين من الجيوش. واقام عليها والياً دهره اغريبا ودعاها باسم ابنته جوليا وتنافس الملوك من سلالة هيرودس اغريبا في تزيينها بالعمائر الجليلة من هياكل ومراسح وقصور شتى. وفي مرفإها كان يحتلّ الاسطول الروماني لمراقبة البحر المتوسّط. وشرّفها كثيرون من القياصرة بزيارتهم. فكلّ ذلك كان مدعاةً لتُمنَح امتيازاً لتدريس الحقوق الرومانيّة. ثم (ثالثاً) استعداد بيروت لانشاء مدرسة فقهيّة فانَّ وفرة المعاملات التجاريّة تفتح باباً للدعاوي والدعاوي لا تُفصل الّا بالرجوع الى الشرائع فلا بُدَّ من درس الشرائع. ولذلك كانت رومية جمعت بيروت مستودَعاً لما يسنّهُ ملوكها وساستها من الشرائع فكانت تودع في خزائن بيروت. لنا على ذلك شاهد في الدستور المعروف بالغريغوري في السنة ١٩٦ للميلاد. فوجود هذا المجموع الثمين يدلّ على قول العلّامة الالماني الكبير «موميسن» على انَّ مدرسة بيروت كانت سبقت تلك السنة. انّما السير كوليه فيفضّل القول بانَّ المدرسة أُنشئت بعد اختزان تلك الشرائع في مستودعات بيروت فعلى رأيه انَّ بعض المتفقهين اذ وجدوا لديهم تلك الشرائع اخذوا يدرسونها ويُفتون بموجبها ثمَّ اتّسع شغلهم واشتهروا بفنّ المحاماة ففكّروا في انشاء مدرسة قانونيّة

﴿المطلب الثالث﴾ اين وردت المعلومات عن مدرسة بيروت الرومانيّة الفقهيّة ؟ رأيت انّ اقدم شاهد على وجود مدرسة الحقوق في بيروت يرقى الى السنة ٢٣٩ . وجاء ذكرها في ترجمة القديس الشهيد افيان الذي درس فيها الحقوق قبل استشهاده في قيصريّة سنة ٣٠٦م . وكذلك ذكرها الامبراطوران ديوقلطيانوس ومكسيميانوس في قرار أصدراه في اواخر القرن الثالث في حقّ التلامذة القادمين من بلاد العرب بموجبه رُخّص لهم ان يدرسوا الحقوق في بيروت ولو كان عمرهم بالغاً الى ٢٥ سنة فأثبتا بذلك اعتبارها لطَلَبة الفقه في بيروت

امّا الشواهد عن المدرسة البيروتيّة في القرن الخامس فعديدة واضحة منها شهادة اوناپيوس الفيلسوف الوثني في مديحه لاناتوليوس البيروتي الذي كان اتقن علم الحقوق في وطنه قال « ولا عجب لانّ بيروت هي امّ وظئر العلوم الفقهيّة » . ومنها شهادة القديس غريغوريوس النزيزي مركز في أنها الشرائع الرومانيّة . واخصّ منها عدّة شواهد الكبير اساتذة الخطابة والاداب في عصره ليبانيوس الانطاكي معلم القديس يوحنّا فم الذهب انّهُ كرّر مرارًا في رسائله ذكر مدرسة بيروت واطرأ تعليمها زاده اسفهُ على العدد الغفير من الشبّان الذين كانوا يفضّلون درس الحقوق في بيروت على درس الخطابة في انطاكية . ويستفاد من كلامه انّ لغة التدريس في بيروت كانت اللاتينيّة

وكذلك ورد في كتاب وصف عموم الارض (Descriptio orbis terræ) لاحد كتبة القرن الرابع مديحٌ بليغ في بيروت ومدرستها التي « شاعت في العالم الروماني تعاليمها الفقهيّة كما شاع في كلّ انحاء المملكة ذكر مشاهير الفقهاء المتخرّجين فيها »

ومثلها شأنًا الشواهد التي وردت لكتبة القرن الخامس كشهادة مؤرّخ حياة الشابّين الشقيقين اركاديوس ويوحنّا اللذين رُوِيَت في المشرق(١٢ [١٩٠٩] : ٦٩٤) قصّتها العجيبة اذ ارسلها ابواهما ليدرسا الفقه في بيروت . وكشهادة الشاعر الوثني نونّس الذي افاض في اوصاف بيروت ودعا معلّمي مدرستها الفقهيّة « اساتذة المسكونة » οἱ τῆς οἰκουμένης διδάσκαλοι

واصرحُ وابلغ منها شهادة زكريّا النزّي الخطيب الذي سُقِف على جزيرة متيلين

في سيرة ساويرس الانطاكي التي كتبها بالسريانية فوصف فيها سلوك ساويرس في بيروت حيث أتى ليدرس الفقه نحو السنة ٤٨٦. فذكر زكريا المدرسة الفقهية واتسع في تعريف دروسها وطلبتها واساتذها وما كان جارياً فيها من العادات بل افادنا عن عدة اخبار بخصوص بيروت واهلها واكليروسها وكنائسها ومبانيها

هذا فضلاً عن شهادات أخرى جاء فيها ذكر بعض تلامذة مدرسة بيروت كما سترى

وكان أطيب شهادة على محاسن مدرسة بيروت مديحاً للامبراطور يوستنيان في منشورَين لهُ عن الدروس الفقهية (Omnem و Tanta) كتبها في ١٦ ك ١ سنة ٥٣٣ وكرَّر ثناءهُ على «بيروت الفائقة الجمال وظئر الشرائع» وقد جعلها احدى المدارس الثلث مع رومية والقسطنطينية التي تعرفها الدولة رسمياً

فترى انَّ هذه الشواهد متواصلة منذ القرن الثالث الى السادس وكلها لسان واحد في الثناء على معاهد بيروت لتعليم الفقه الروماني. ولم تنتهِ تلك المحامد إلَّا بما عقبها من اصوات الاسف لمَّا أصيبت بنكبة الزلازل التي الحقتها بالدقماء وابادت آثار مدرستها وذلك في ١٦ تموز سنة ٥٥١

٢ معاهد مدرسة بيروت الفقهيَّة

هو الفصل الثاني الذي حاول فيهِ المسيو كولَينه ان يعيّن موقع مدرسة بيروت ومعاهدها التي كانت تُلقى فيها الدروس الحقوقيَّة إلَّا انَّ ما أصيبت بهِ المدينة من الآفات وضروب الخراب قلَّ ما يسمح بتعيين مكان المدرسة. فاعاد المؤلف نظرهُ في ما كتبهُ القدماء عن المدرسة واحوالها ولاسيما زكريَّا الخطيب في ترجمة ساويرس وما وُجد في المدينة من الآثار القديمة فتبيَّن لهُ انَّ المدرسة كانت قريبة من احدى كنائس بيروت الثلث المذكورة في زكريَّا اعني كنيسة الرسول يهوذا وكنيسة مريم وكنيسة القيامة ورجَّح عليها كنيسة القيامة لأنَّها كانت الكنيسة الكاتدرائية الكبرى التي شيَّدها اسقف المدينة اوستاتيوس (٤٤٣–٤٦٠) في مكان كنيسة سابقة كان القيصر يوثيانس حكم على والي المدينة الوثني مَغنوس ان يشيّدها على نفقتهِ سنة ٣٦٤ لأنَّهُ كان امر بحرقها في عهد يوليانس الجاحد. اما سبب تفضيله لهذه الكنيسة على سواها

فلأدلة مختلفة واشارات دقيقة وردت في رواية زكريا الخطيب تثبت قرب وقوع مدرسة الفقه بجوار كنيسة القيامة . والى هذا الرأي ذهب ايضاً لوكيان (٢ : ٨١٩) في كتابه الشرق المسيحي والاب جوليان اليسوعي في كتابه « سينا وسوريّة » اثبتا رأيهما بألوف عادة تلك الاجيال بان تُجعل المدارس قريباً من الكنائس

ولكن اين كان موقع كنيسة القيامة ؟ كانت قريبة من الطريق الرومانية الممتدّة من الشرق الى الغرب مارّة بين مستشفى راهبات المحبّة وكاتدرائية مار جرجس للموارنة . على انّ البعض جعلوها شمالي الطريق اي عند المستشفى المذكور إلّا وُجد هناك من الآثار القديمة . لكنّ المسيو كولينه يخالف هذا الرأي ويجعلها جنوبي الطريق المذكورة قريباً من كنيسة مار جرجس وذلك لسببين اوّلاً لان كنيسة القيامة كانت داخل سور المدينة فان جُعلت في مستشفى راهبات المحبة اقتضى القول بأنّها كانت خارجة عن السور . وثانياً لان الآثار القديمة التي وُجدت جنوبي الطريق كانت اوفر واعظم ممّا وُجد في شماليها . وأيّد ذلك بكتابة ضريحيّة وجدت هناك وقف عليها حضرة الاب جلابرت اليسوعي وفيها ذكر احد اساتذة مدرسة الفقهيّة البيروتيّة الدعو بتريكيوس فكأنّهُ دُفن في الكنيسة المجاورة للمدرسة التي علّم فيها

٣ الطلبة في مدرسة الفقه البيروتيّة

قسم المؤلف هذا الفصل الثالث من كتابه اربعة اقسام بحث في (الاوّل) عن الطلبة القادمين الى مدرسة بيروت واستعدادهم لدروسها . وفي (الثاني) عن اصلهم وجنسهم واسمائهم . وفي (الثالث) عن معاشهم . وفي (الرابع) عن اعمارهم

١ كان طلبة الفقه قبل تفرُّغهم لدرس الحقوق يحتاجون الى دروس لغويّة وادبيّة في اللغتين اليونانيّة واللاتينيّة تؤهلهم للدخول في مصفّ تلامذة العلوم الفقهيّة . فتلك الدروس الثانويّة كانوا يتلقّونها في أوطانهم امّا بمساعدة بعض المعلمين الخصوصيين او في المدارس الوطنيّة العموميّة . وقد ورد بين هذه المدارس ذكر الحاضرتين الكبيرتين الاسكندريّة وانطاكية فان العلوم الادبية فيهما كانت بلغت شهرة واسعة . فكان تلامذتها اذا انجزوا دروسهم الثانويّة يقصدون بيروت لينتظموا في سلك دارسي الحقوق الرومانيّة

٢ قد جمع جناب المؤلف في كتابه (ص ٨٤-٩٨) نحو خمسين اسماً من طلبة الفقه الذين تخرّجوا في مدرسة بيروت نقلها عن الكتبة المعاصرين لاسيما ليبانيوس استاذ الخطابة الشهير في انطاكية وزكريّا الخطيب في ترجمة ساويروس الانطاكي والمورخ بروكوبيوس الغزّي الشهير. فهذه الاسماء اما يونانيّة كاناطوليوس وناوردورس واثناسيوس وانستاس وايثفريوس واما لاتينيّة كفلاڤيانوس وهيلاديوس وسلوانس واركاديوس. ومنها اسماء نصرانيّة محضة كبطرس وزكريّا ومكاريوس ويوحنّا وقسطنطين وفيلبّوس

اما اوطانهم فالبعض منهم من بيروت كپمفيلوس واناطوليوس وقسطنطين. او من جهات سوريّا وفلسطين كفيّانوس الصوري وزكريّا الغزي ومثله خمسة آخرون من غزّة وكزكريّا ويوحنا من مَيُومة وناوددورس وايثفريوس واسطفان من عسقلان وارتيمون وهرموجان وباونينوس من انطاكية وكانستاس من الرها وايثفريوس السيباطي. وكان غيرهم من جزيرة العرب كسترينوس وناوددورس ويوحنّا وبعضهم من الاسكندريّة كاثناسيوس وايزيدورس او من عين شمس وكأسكليبيودوتس ومعظمهم من آسيا الصغرى من بيثينيا وقيليقيا وايبريا وليقيا واليونان حتى من القسطنطينيّة كابرنغيوس واركاديوس ويوحنا اخيه

وقد افادنا ليبانيوس الانطاكي انّ طلبة الحقوق في بيروت كانوا في اوّل الامر من اواسط القوم ثمّ اخذ اولاد الاعيان يهجرون العلوم اللسانيّة لينقطعوا لعلم الحقوق في بيروت

اما اديانهم فكان بعضهم وثنيين كارتيمون وهرموجانس وهيلاريوس وبعضهم مانويّين كجرجس التسالونيكي واسكليبيودوتس ولاونطيوس يتعاطون السحر كما ورد في اخبار ساويرس الانطاكي في اواخر القرن الخامس فحُكم عليهم بالنفي. واما العدد الاوفر منهم فكانوا من المسيحيين استشهد منهم القديس بمفيليوس اسقف غزّة البيروتي سنة ٣٠٩ والأخوان الشهيدان افيانوس في قيصريّة وايديسيوس في الاسكندريّة (١ وتسقّف غيرهم كساويروس الانطاكي وزكريّا الغزّي ويوحنا العربيّ والبعض صاروا كهنةً كيوحنا الفلسطينيّ الذي خدم كنيسة القديس يهوذا في

١) وقد جاء للمؤلف بالغلط (ص ٣٩) انّ افيانوس كان اسقفاً على قيصريّة

بيروت في اواخر القرن الخامس واسطفان الصقلاني ويوحنا روفوس . وتنسك آخرون كاثناسيوس من بلاد كارية واركاديوس ويوحنا الاخوين ترهبا في بعض اديرة فلسطين (١

وقد اصاب بعض هؤلاء الدارسين مناصب شريفة كاناطوليوس الذي صار والياً في عهد القيصر يوليانوس الجاحد وكفيانوس الصوري الذي تعيّن قنصلية فينيقية سنة ٣٦٢ واما الذين اشتهروا بالمحاماة فكثيرون

٣ كان معاش الدارسين في بيروت مبنياً على اتفاق مع اهلها او اصحاب فنادقها . وكان التلامذة يدفعون لاساتذتهم راتباً معيّناً ما خلا ما كانت الدولة تجعل لهم من الوظائف . وكان الطلبة يتعاضدون بعقد نقابة يدعونها شركة الدارسين ليدافعوا عن حقوقهم . على انّ المتقدّمين منهم في الدروس كان يتحكّمون على المبتدئين من الطلبة ويسومونهم خسفاً حتى اضطرّ الامبراطور يوستنيان ان يضع حدّاً لتلك المعاملات الجائرة

اما مسالك الدارسين فكان بعض اتجه اتجاهاً كبيراً فانّ قسماً كبيراً منهم كان يستسلم للذّات والشهوات الباطلة مع ما كانوا يلقون في بيروت من اسباب الغناء والدواعي الى الترف لاسيما انّ الوثنيّة لم تزل سائدة على شطر من المدينة . وقد أدّى سوء السلوك ببعضهم الى ان تعاطوا السحريّات واصبحوا عثرة في سبيل رفقتهم بل تأذّى منهم البيروتيّون لولا انّ اسقف المدينة أعلن بمساوئهم ودفع الحكّام على نفيهم

على انّ قسماً آخر من الطلبة وبالخصوص المسيحيين منهم لم يدعوا اهواء العالم تتغلب على قلوبهم فكانوا يلازمون الحياة الصالحة ويتشبّثون بأهداب الدين . وقد ورد في سيرة ساويروس الانطاكي انهُ كان في كلّ مساء يزور مع بعض رفاقه كنيسة القيامة ويمارسون الاعمال التقويّة فاصبحوا قدوةً لرصفائهم بل عدل بعضهم عن درس الحقوق الى اعتناق الكهنوت او المعيشة النسكيّة

وقد انبأت الآثار الباقية ان كثيرين من الطلبة المذكورين نجوا من عثرات الشباب بانكبابهم على الدرس وتعمّقهم في العلوم الفقهيّة . فلا عجب ان شهرة مدرسة بيروت انتشرت بسببهم اذ انتدبتهم الدولة الى مناصب الافتاء والمحاماة في حواضر

(١) لكنهما لم يستشهدا كما ورد في الكتاب (ص٤٢) لا هما ولا والداهما

البلاد فاحرزوا لهم سمعة طيبة

٤ أما اعمار الدارسين فكانت غالباً بين الخامسة عشرة والعشرين من سنهم فيدرسون اصول العلوم الفقهيَّة وفروعها اربع سنين ومنهم من يضيف اليها سنةً خامسة. على انَّ هذه القاعدة شذَّت نوعاً بتقرير للقيصرين ديوقاطيانس ومكسيميانوس أعلنا فيه بالرخصة للتلامذة العرب ان يواصلوا دروسهم الى السنة ٢٥ من عمرهم ثمَّ اتَّسعوا في هذه الرخصة حتى انَّ بعض الطلبة كانوا يبلغون الكهولة وجاء في احد تواريخ ساويروس الانطاكي انهُ بقي في بيروت الى السنة الثلثين من عمره

٤ اساتذة المدارس الفقهيَّة في بيروت

هو الباب الرابع من تأليف المسيو كولينه (١١٩-٢٠٤) بحث فيه عن اسماء اساتذة بيروت في مدرستها الرومانيَّة الفقهيَّة وعددهم وتنصيبهم ورواتبهم وامتيازاتهم

اما (اسماء اولئك المدرّسين) فلا يُعرف منهم احد قبل القرن الرابع فانَّ الذين زعموا بانَّ كبار الفقهاء في القرنين الثاني والثالث كمايوس وألبيان وبابينيان ومرسيان وتريفونيوس علَّموا الفقه في بيروت لا يستندون الى سند ثابت بل رووا قولهم حدساً لانَّ اولئك الاساتذة كان اصلهم من بعض مدن سوريَّة او مرُّوا ببيروت

وفي القرن الرابع لا يُعرف من اساتذة بيروت إلَّا المسمَّى دومتيوس تكرَّر ذكرهُ في رسائل ليبانيوس يوصيه بشبَّان يذهبون من انطاكية ليتعلَّموا الفقه في بيروت

اما القرن الخامس وهو قرن المدرسة الذهبي فقد اشتهر فيهِ كثيرون من معلميها الذين نَعَتَهم احد معاصريهم « بأساتذة العالم » اخصُّهم كيرلس شارح كتب ألبيان وبابنيان ثمَّ باتريقيوس المعروف بالاستاذ الكبير وبملك مدرسة بيروت الفقهيَّة ويرجَّح انَّ الكتابة المحطَّمة التي وجدها حضرة الاب جلابرت قريباً من كنيسة مار جرجس الروم وجاء فيها ذكر « باتريكيوس العالم بالشرائع » انما هي لضريح هذا الاستاذ. ثمَّ الاساتذة دومتيوس وديوستان واوذوكسيوس وأمبليكوس ولاونتيوس بن اوذكسيوس

وهذا الاخير كان يعلم في اواخر القرن الخامس وتولى مدةً ولاية الشرق على عهد القيصر انستاس (٤٩١–٥١٨) ثمَّ مات في نواحي سنة ٥٣٠

وقد رجحت بيروت في القرن الخامس بفضل اساتذتها من الامبراطورين ثاودوسيوس والثنيان ان رفعا رتبتها بقرار خصوصي بين السنتين ٤١٨–٤٥٠ فتحاها شرف الحاضرة (metropolis Berytus) ورُقي ايضاً بسببها سقف المدينة الى درجة المتروبوليت مستقلاً من متروبوليَّة صور. وكذلك رُقيا المدرسة بقرار ثانٍ الى امتياز المدرسة الرسميَّة (Privilegium studii) كمدينتي رومية والقسطنطينيَّة وفي ذلك العهد نُقلت معاهد التعليم الى جبرة الكنيسة قبل السنة ٤٤٩م

أمَّا القرن الخامس فذكر من اساتذة بيروت ما خلا اناطوليوس بن لاونتيوس ثلاثاوسُ واسطفان ويوليانوس ودوروثاوس وهؤلاء استعان بهم الامبراطور يوستنيان لتنقيح كتب الشرع وتلخيصها وتنظيمها . وفي اواسط هذا القرن خربت بيروت ومدرستها بالزلازل

وان سألتَ عن (عدد المعلّمين) السنوي للسنين الاربع او الخمس التي كان يُدرَّس فيها الفقه في القرون الاولى لم تجد معلماً خاصاً لكل سنة . بل كان المعلّم الواحد يدرّس تلامذة سنتين وهكذا لم يزد عدد المعلّمين على اثنين او ثلثة فان لاونتيوس مثلاً الذي ذكره زكريا الخطيب كان يلقي دروسهُ على تلامذة السنتين الاولى والثانية . وانما بلغ عدد الاساتذة بموجب منشور يوستنيان الى اربعة

واما (تعيين المعلّمين) للتدريس فكان حُرًّا لا يتقيَّد قبل القرن الرابع إلَّا بتصديق مجلس الشيوخ في بيروت فيصدّقون عليه . وفي السنة ٣٦٢ نشر يوليانس الجاحد قراراً اشترط فيه ان يصير تعيين المعلمين بموجب صكّ من قائد العشرة وتصديق اعيان المدينة ثمَّ افترض الامبراطور ثاودوسيوس ان يُعرَض عليه قرار للقائد والشيوخ فيكون اليه المرجع الاخير . وليس لدينا ما يشترط للتعليم من عمر المعلّمين ولعلَّ كل الذين انهوا دروسهم الفقهيَّة كانوا يستطيعون ان يعرضوا انفسهم للتعليم حتى منذ العشرين من عمرهم

. من جهة (رواتب المعلمين) لم تُعطهم الدولة معاشاً قبل القرن الخامس فكانوا يتَّفقون على اجرة معلومة مع تلامذتهم كما يتَّضح من كتابات ليبانيوس . والرجح انَّ

الحكومة اجرت عليهم الجرايات منذ السنة ٤٢٥ كما فعلت مع اساتذة مدارس الفقه في رومية والقسطنطينيّة وهي المدارس الرسميّة الثلث بعد إلغاء سواها

وكذلك خُصّ اساتذة الفقه ببعض (الامتيازات) في القرن السادس كمافاتهم من بعض الخدم للدولة التي كان أُعفي منها قبلهم الاطبّاء ومعلمو الآداب اللاتينيّة

٥ التعليم في مدارس بيروت الفقهية

كان اساتذة بيروت يلقون دروسهم الفقهيّة في القرنين الثالث والرابع في اللغة اللاتينيّة كما تشهد عليه سيرة القديس غريغوريوس العجائبي وكتابات ليبانيوس . لكنهم عدلوا الى اللغة اليونانيّة في اواخر القرن الرابع واوائل الخامس وذلك بعد انقسام الدولة الرومانيّة بين اركاديوس وهنوريوس ولدَي ثاودوسيوس فاستفحل استعمال اللغة اليونانيّة في بوزنطية ومملكة الروم فضلاً عن شيوع اليونانيّة في معظم كنائس الشرق الادنى . فكان لاستبدال اليونانيّة من اللاتينيّة تأثير في شيوع مذاهب اليونان وآرائهم العلميّة الفلسفيّة والدينيّة

اما موادّ التعليم فكانت قبل اصلاح يوستنيان نظريّةً وعمليّةً . النظرية تتناول شرح تآليف كبار الفقهاء كاوليان وبابنيان وغايوس وپاولس والعملية تشتمل على الفتاوى التي افتى بها ارباب الشرع في الدعاوي الخاصّة فدُوّنت في المحاكم الرومانيّة . وكانت تلك الموادّ مقسّمة على اربع سنين ثمّ اضافوا اليها درس مناشير القياصرة وشرائعهم الدولية وذلك في سنة خامسة . اما بموجب اصلاح يوستنيان من السنة ٥٣٤ فخصّت السنة الاولى بمقدّمات دستور يوستنيان ثمّ في الثلث السنوات التالية كان المعلّمون يشرحون بعضاً من كتب الدستور المذكور (Digestes) البالغ الى ٣٦ كتاباً المقسّمة على ثلثة اقسام وكان التعليم للسنة الخامسة اختيارياً يتعاطاهُ بعض المجتهدين في دروس خصوصيّة

وقد اختلف اسلوب التعليم قبل دستور يوستنيان وبعدهُ . فانّ الاساتذة في القرنين الثالث والرابع . كانوا يقسمون تعليمهم بين التعليم النظري والعملي كما قيل سابقاً وذلك باختيار المعلّمين موادّ تعليمهم . وقد صار هذا الاسلوب نظامياً في القرن الخامس واوائل السادس . فكان الاساتذة يلقون دروسهم في كلّ ايام الاسبوع الّا

مساء يوم السبت ويوم الاحد بتمامه وكانوا يفتتحون كلّ درس بذكر بعض النصوص الشرعيّة فيدلّون على فحواها ثم يفسّرونها لفظاً ومعنى ويشفعونها بالملحوظات المختلفة ويقابلون بين شروح مَن تقدّمهم ويبدون فيها رأيهم ثم يلقون على تلامذتهم السؤالات لينبّهوا اليها افكارهم وكان الدارسون في اثناء ذلك يدوّنون في دفاترهم خلاصة ما سمعوهُ من اساتذتهم

وهذا التعليم تغيّر نوعاً بظهور الدستور اليوستنياني منذ السنة ٥٣٣ اذ كان يكتفي المعلّم ان يأخذ فصلاً من فصولهِ ويبيّن معناهُ دون اضافةٍ وانتقاد عليهِ ومعارضتهِ بما يخالفهُ

وكانت السنة المدرسيّة تبتدئ عادةً في الخريف إلّا انّ ظروفاً شتى قضت بمخالفة هذه العادة فانّنا نرى بعض التلامذة قصدوا بيروت لحضور دروسها في الربيع وبعضهم حضر في الصيف. وفي الصيف باشر احد الاساتذة هيلاريوس بالقاء دروسهِ

وكان التلامذة عند نهاية دروسهم يطلبون من اساتذتهم اجازةً تشهد على حضورهم في المدارس في السنين المعيّنة وعلى كفايتهم في فنّ المحاماة. وكانوا اذا ارادوا مزاولة فنّهم يطلعون ارباب البلاد على اجازتهم فيصدّقون عليها

٦ في اعمال اساتذة مدرسة الفقه البيروتيّة

انّ الذين نظموا في جملة اساتذة بيروت كبارَ فقهاء القرنين الثاني والثالث كمايوس وألبيان وپاپنيان ينسبون ايضاً تآليفهم الشهيرة الى مدرسة بيروت وقد قلنا سابقاً ان هذا الرأي يخلو من سندٍ ثابت. وكذلك ما ارتآهُ العلّامة مومسن بنسبةِ الدستور الغريغوري الى مدرسة بيروت ليس امراً راهناً اذ لم يُفدنا احد عن غريغوريوس المذكور انّهُ علّم في بيروت. ومثلهُ الدستور المنسوب الى هرموجانس فانّ تعليمهُ في مدرسة بيروت مشكوك بهِ. وكذلك مجاميع اخرى شرعيّة شاعت في القرون الثاني والثالث والرابع لا يمكننا ان ننسبها قطعيّاً لاساتذة مدرسة بيروت. وما لا ريب فيهِ انّ هذه التآليف وُضعت في الشرق كما يظهر من مضامينها ولعلّ مصنّفيها من اساتذة بيروت لكننا لم نجب حتى الآن بنصّ صريح يزيل الشكّ من هذا القبيل

ومما لا يطرأ عليه ادنى ريب مصنّفات اساتذة بيروت في القرن الخامس فانّ كيرلّس

صنف التعريفات الشرعية Ὑπόμνημα τῶν Βασιλικῶν الذي كان المعوّل عليه قبل الدستور اليوستنياني

وألّف بتريقيوس شروحاً على الدساتير الحقوقية التي سبقت زمانهُ وتذييلات على المناشير القيصرية الملوكية . ومثلهُ رصينهُ دومنيوس الذي وضع شروحاً على الدستورين الغريغوري والثاردوسي . وكذلك ديوستان واودوكسيوس وامبليكوس ولاونتيوس فانَّ لجميعهم بعض التآليف الشرعية وخصوصاً الشروح على الدساتير الشرعية . والى اساتذة بيروت تُنسب التفاسير المعروفة بالسينائية (Scholia Sinaïtica) وتآليف غيرها لم يتّفق العلماء على مصنّفيها

امّا اساتذة القرن السادس فان لهم فضلاً كبيراً بمساعدة يوستنيان في اصلاحه للشرائع الرومانية وكان انتدب لهذا العمل معلّمي الحقوق في مدرسة بيروت كدوروثاوس واناطوليوس وثلالاوس وايزيدورس واسطفان واستحقوا بذلك شكر كل علماء الفقه . ومنهم من جعل للدستور اليوستنياني فهارس او ألّف له خلاصة تغني عن مطوّلاته

ونرى من هذه المجالة ما يحتويه كتاب الدستور الذي نقلهُ من باريس الجمعية التي بها احيا بعض مفاخر وطننا المطموسة وجعل لمدرسة الحقوق الفرنسوية الحديثة مثالاً يقتدي بهِ معلّموها وطلبتها فيكسبون بيروت فخراً جديداً يُضاف الى مآثرها القديمة فلهُ منّا الشكر العميم

رحلة الى جبل الشيخ

لحضرة الاب رينه موترد اليسوعي

١ من بيروت الى بلدة بشارة

اننا بفضل عطلة المدارس السنوية امكننا في اوائل شهر تموز الماضي ان نزور جبل حرمون المعروف بجبل الشيخ ونطّلع على شيء من آثاره فنقلتنا السيّارات بساعتين